جمالية العناصر المعمارية في تلمسان " المساجد نموذجا "

الأستاذ :حكيم بن يلس
قسم الفنون
كلية الآداب والفنون
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

الملخص :

إن المسجد هو أهم مكان تتمثل فيه العمارة الإسلامية والفن الإسلامي معا، ولقد ظهر على المساجد الأولى البساطة في البناء، ثم اخذ المسلمون يهتمون بها فيوسعون مساحتها ويبنونها بالحجارة والأعمدة، ويزينونها لتلائم ما وصلوا إليه من غنى وقوة وسعة .

وإذا كانت هناك مؤسسة تجسدت فيها الحضارة الإسلامية بأسمى معانيها فلا شك في أنها المسجد ففيه انصهرت القيم الدينية بالقيم الدنيوية، لذا أصبح المسجد بصفته مؤسسة حضارية رمزا للثقافة الإسلامية تتجسد فيه براعة المسلمين الإبداعية.كل هذه الخصائص والمظاهر لمسناها في مساجد تلمسان خاصة في الفترة الزيانية والمرينية، هذا إلى جانب التأثيرات المغربية والأندلسية خصوصا في العناصر الزخرفية .

القيم الجمالية في عاصمة الثقافة الإسلامية تلمسان "المساجد نموذجا"

1- التعريف بالمسجد:

قبل أن نتطرق إلى الحديث عن تاريخ المساجد وتطورهايجدر بنا أن نشير إلى بعض المصطلحات المتعلقة بالمسجد سجد يسجد سجودا :وضع جبهته بالأرض وقوم سَجّد و سجود (1) .

والمسجد بكسر الجيم إسم لمكان السجود والمسجد بفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود،والمسجد بكسر الميم ....وهي الحصير الصغير .

أما المسجد شرعا هو الموضع الذي يسجد فيه فهو مسجد لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم :"جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ".

هذا في السنة الشريفة .

وقد وردت كلمة مسجد في العديد من آيات وصور القرآن الكريم ونذكر على سبيل المثال قوله تعالى :"وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه كمخلصين له الدين"(2)

أما عن أسباب اختيار مسجد مكانا للصلاة يقول الزركشي "لما كان السجود أشرف الأفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه "مسجد ولم يقال مركع (5) .

وعلى هذا فقد استقر العرف على الإطلاق كلمة المسجد الجامع على المساجد الكبيرة التي تستوعب المصلين أيام الجمع والأعياد .

2- ظهور المسجد:وتطوره :

يعتبر المسجد رمزا للفن الإسلامي، فهو مكان بسيط على شكل مربع أو مستطيل ممتد من المسجد الأول للرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة.

لقد كان أول ما قام به الرسول "ص" عند هجرته إلى المدينة في السنة الأولى للهجرة 622م هو بناء مسجد للمسلمين في مربد التمر الذي بركت فيه الناقة ،كان بناؤه 'المسجد' بسيطا اعتمد فيه على خبرة بعض الصحابة ممن لهم دراية بالبناء (6) أقيم المسجد النبوي الشريف من قطعة الطوب مربعة المساحة $(100x100)^2$ أساساتها من الحجر ....وقوام جدرانها من اللبن .أي أن التصميم الأول للمسجد تميز بالبساطة والتقشف في البناء.وهذا يعدّ المسجد النبوي النواة الأولى لعمارة المساجد كما أنه كان يحمل الخطوط العريضة لنمط معماري كان أول نموذج للمساجد الإسلامية التي انتشرت فيما بعد في كل أنحاء العالم الإسلامي.

مساجد تلمسان :

تمتاز تلمسان بالعدد الكبير من المساجد الرائعة الجمال التي بنيت في عهد الأدارسة والمرابطين والزانيين والمرينيين .

وأقدم مسجد ما زالت له آثار بتلمسان هو مسجد أغادير الذي يرجع تأسيسه إلى إدريس الأول (7).

وبعد الأدارسة جاء المرابطون الذين ساهموا بإسهاماتهم وشيدوا بتلمسان الجامع الكبير الذي يعتبر بحق من روائع الفن الإسلامي .ثم جاء من بعدهم الزيانيون فشيدوا عدة مساجد أشهرها مسجد أبي الحسن بالقرب من الجامع الكبير الذي يعتبر بحق من روائع الفن الإسلامي ،ثم المرينيون الذين شيدوا بعض المساجد بتلمسان أشهرها مسجد سيدي أبي مدين شعيب.

لقد اهتم الكثير من المؤرخين ودارسي الفن وعلماء الآثار على وجه التحديد بتاريخ المساجد وأنماطها ونشأتها وتطورها ،حيث لقيت عناية كبيرة من قبلهم كما حازت حيزا كبيرا في كتب أولئك الباحثين سواء منهم المسلمين أو الأجانب .وفي هذا المجال لقيت مساجد تلمسان القديمة نصيبها الوافر من عناية بعض المختصين بالآثار الإسلامية في بلادنا.

ومن بين الباحثين الأجانب الذين اهتموا بمساجد تلمسان الأخوين وليام وجورج مارسي (8) الذين يعتبران من الأوائل الذين اهتموا بدراسة معالم تلمسان ،هذا إلى جانب ألفردبل وبرجيس.

أما بالنسبة للباحثين الجزائريين يعتبر رشيد بورويبة (9) من أوائل الباحثين الذين أولوا عناية خاصة بمساجد تلمسان .

العناصر المعمارية للجامع الكبير:

يعد الجامع الكبير لتلمسان المسجد الجامع الوحيد من بين المساجد الجامعة المرابطية في المغرب الأوسط الذي يحتفظ بعناصره المعمارية الأولى ،كما يمثل نقطة انتقال من العمارة البسيطة التي يجسدها جامعا الجزائر وندرومة إلى نوع من الإبتكار والثراء الفني الزخرفي المعماري،استوحاهما المرابطون من الفن الأندلسي ،وفيما يلي عرض للعناصر المعمارية بالمسجد.

1- المحراب :هو عبارة عن شكل متعدد الأضلاع ،يرتكز على عمودين نصف ملتصقين بينما نجد داخل المحراب من أعلاه إلى القاعدة الفنية ،كورنيش (طنف) مثمن وحشوات مستطيلة 10.
ومحراب جامع تلمسان من المحاريب المجوفة .

ويتوج واجهة المحراب عقد متجاوز من نوع حذوة الفرس ويبدو بحافته عقد زخرفي مفصص يتبع نفس الأسلوب الأندلسي في تنسيق المحاريب .

والجدير بالذكر أن من المرابطين هم أول من زين المحراب من الداخل بالزخارف النباتية في المغرب (11).

منبر المسجد الجامع بتلمسان :على يمين المحراب نشاهد منبرا صنع من خشب الجوز عجيب الشكل من حيث الزخرفة وإحكام الصنعة إلا أنه حديث العهد .

المئذنة:

إن أقدم المآذن الزيانية في المغرب الأوسط ما تزال قائمة إلى يومنا هذا ،هي مئذنتا المسجد الكبير وأغادير بتلمسان حسب رأي التنسي ويحي بن خلدون ،شيدت مئذنة الجامع الكبير من طرف يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية حسب ما ذهب إليه جورج مارسي (12).

وتتميز المآذن الزيانية بالزخارف المتنوعة التي غطت أوجهها الاربعة مثلما كانت المئذنة الموحدية ،لكن الخاصية التي تمتاز بها المئذنة الزيانية هي الفتحات (الشبابيك) الضيقة عوضا عن النوافذ الواسعة التي اشتهرت بها قلعة بني حماد والكتبية بمراكش.

وفي الغالب كانت أسطح المآذن تنتهي بشرفات ،وإذا كانت هذه الشرفات تتخذ شكل العقود المتكسرة فإنها بالعكس عند الفنان الزياني كانت تمثل بروزا ،فيبدو أن الصانع التلمساني قد استلهم هذا الشكل من المباني الموحدية .

الحوامل والركائز:

أولا :الدعامات :في الجامع الكبير بتلمسان هناك أربعة أنواع من الدعامات :

الدعامة المستطيلة

الدعامة الصليبية

الدعامة التي تتخذ شكل حرف T اللاتيني.

الدعامة التي يلتصق بإحدى واجهاتها عمود.

ثانيا:

يبلغ عدد الأعمدة في الجامع الكبير بتلمسان ثمانية أعمدة فقط،منها سبعة تقع في الجزء الذي شيده المرابطون عند الجامع ،منها عمودان يكتنفان فتحة المحراب أما الخمسة الباقية فتشغل صفي الروافع التي تحد البلاطة الوسطى في النصف الأول والثاني والسادس من صفوف الدعامات الموازية لجدار القبلة ،أما بالنسبة للعمود الثامن يقع ضمن الزيادة التي بنيت من طرف الزيانيين ،وتتكون هذه الأعمدة من قاعدة وبدن وتاج .

المداخل:

لهذا الجامع موضوع البحث ثمانية مداخل ثلاثة منها في القبلة :مدخل بن مرزوق وسمي بهذا الإسم لقربه من ضريحه وكان فيما قبل يسمى مدخل المدرسة التاشفينية لقربه من بابها وباب الجنائز وهو خاص برجال الدين من أئمة ومؤذنين وقيمين سمي بهذا الإسم لأن الأموات يدخلون منه للصلاة عليهم ومدخل الأضحية لأن الإمام يذبح أضحيته يوم العيد بالقرب منه عملا بالقاعدة المعلومة "لا تذبحوا قبل أن يذبح الإمام "وأربعة مداخل أخرى في الشرق :مدخل الخرّازين لقربه من الدكاكين،وباب دار المساكين لأنه يقابل ملجأ الشيوخ والعجزة وباب سيدي أحمد بن الحسن الغمار ي لأنه يقابل ضريحه وهناك مدخل هو مدخل سوق الغزل لقربه من السوق حول هذا الباب إلى باب المحكمة الشرعية.(13)

في حين ينفتح على المجنبة الغربية باب واحد هو باب دار الإمارة أو القصر القديم ،كان خاصا بالسلطان وحاشيته كان يدخل منه الإمام لأداء الصلاة.

الصحن:

صحن الجامع الكبير بتلمسان هو فضاء واسع مربع الشكل تبلغ مساحته 400 م^2 مبلط بمربعات كبيرة من الرخام ،وفي وسطه حوضان أحدهما مستطيل الشكل والثاني مدور الشكل تحيط به مصاطب من الرخام أدخلت عليه تعديلات جديدة مؤخرا في إطار التحضير لتظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية وكذلك الشأن بالنسبة لكثير من معالم تلمسان الأثرية التي شهدت هي الأخرى ترميمات كجامع المنصورة ومسجد أولاد الإمام وقصر المشور إلخ...

القباب:

لقد اندثرت كل قباب المرابطين في المغرب الأوسط ،باستثناء قبة مسجد الجامع الكبير بتلمسان التي تتقدم المحراب ذات التعريقات والتي يرجع الفضل في بنائها إلى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سنة 530هـ /1135 م ويؤكد هذا التاريخ الشريط الكتابي الذي يحيط بقاعدتها .

وتعتبر قبة المسجد الجامع بتلمسان أول قبة بنيت في المغرب وتعد بحق رائعة من روائع الفن الإسلامي بزواياها المحلاة بالنقوش الزخرفية ،والمرابطون هم أول من أدخل هذه الزخرفة على القباب (14).

تتألف هذه القبة من 12 عقدا كبيرا مبنيا من الآجر وهذه العقود متجاورة دقيقة الصنع تتقاطع في أعلى القبة تاركة قبيبة مقرنصة.

وقد أضاف الزيانيون قبة ثانية في وسط الجامع في البلاطة الرابعة لكنها أقل جمالا من القبة المرابطية .

هذا وتظهر براعة المعماري الزياني في كيفية الانتقال من الفضاء المربع المقرر تغطيته إلى قاعدة القبة المضلعة بواسطة حنايا ركنية على شكل مثلثات يحتوي كل مثلث منها على قبيبة مضلعة داخل مربع ذي ثمانية رؤوس .15

والجدير بالإشارة أن هذه القبة قد أقيمت على أربع حنايا ركنية حولت المربع إلى مثمن.

كما نلاحظ أن الفنانين المعماريين قد جعلوا الحنايا الركنية علي شكل عقد مقوس والشيء الجديد في الزخرفة هو المقرنصات.

المقرنص:

ما دمنا بصدد الحديث عن المقرنصات يتبادر إلي الذهن هذا السؤال،وهو هل أن المرابطين هم الذين نقلوها من الشرق الإسلامي أم عرفوها بواسطة الحماديين أو عن طريق الأندلس؟ ونجد في مصباح قبة تلمسان قبيبة ذات مقرنصات تعتبر الأولى من نوعها في المغرب، علما بأن قبة الجامع الكبير بتلمسان ليست هي النموذج الوحيد،بل ظهرت في معلمين أثريين آخرين هما:

1/قبة البروديين بمراكش.

2/قبة مسجد القرويين بفاس16.

وتقوم فكرة شكل حليات المقرنصات على ما يسمى في الفن الإسلامي بالتشكيل الجزئي،أي أن شكل المقرنصات ذاتها تحتوي على حنيات مقعرة.

غير أن الجديد في المقرنصات المغربية ومنها التلمسانية كونها ذات وجوه أو سطوح وبعبارة أدق ذات أشكال منشورية متراكمة17.

و هكذا نلاحظ أن المرابطين كان لهم الفضل في ابتكار عنصر جديد ألا وهو المقرنص.استساغه كثير من الفنانين المعماريين لتشكيل قبابهم في مختلف العمائر.

نستخلص مما سبق ذكره أن الفنانين التلمسانيين قد أبقوا على الأساليب الفنية و المعمارية الأندلسية التي تأثروا بها أيما تأثير وقد وصلتهم عن طريق اتصال المغرب الأوسط بالأندلس على مر العصور.

فبصمات الزخرف الأندلسي على عمائر تلمسان خصوصا المساجد لا تخلو من عناصر الزخرفة الأندلسية .

وهذا التأثر لم يأت مرة واحدة بل نتيجة عدة عوامل أهمها بفضل الاحتكاك و تبادل الخبرات بين المجتمع الأندلسي والتلمساني.

لقد كان المرابطون في بداية عهدهم بعيدون عن الترف ومظاهر الزينة و الزخرفة لكن سرعان ما تغيرت نظرتهم للفن بسبب امتداد نفوذهم إلى الأندلس حيث تأثروا بما شاهدوه من عمائر ومباني دينية و قصور رائعة الجمال تشد إلى الإنتباه، هذا كان له أثر في نفوسهم، فانعكس على عمائرهم خاصة المساجد التي شيدوها في المغرب الأوسط كالجامع الكبير بتلمسان.

الهوامـــش:

1- ابن منظور أبي الفضل جمال بن مكرم ج3 دار إحياء التراث لعربي بيروت لبنان د.ت ص: 204

سورة الأعراف، الآية: 29

1- سورة الأعراف، الآية:30

2- سورة الجن، الآية:18

3- سعاد ماهر، مساجد السيرة النبوية، الهيئة العامة المعربة للكتاب، القاهرة 1987، ص 13-14

4- نويصر حسني محمد، الآثار الإسلامية، مكتبة الزهراء الشرق 1997 ،ص 42

5- أنظر: د عبد العزيز سالم،تاريخ المغرب في العصر الإسلامي الإسكندرية ، د.ت ص381

6- (w) et (G) Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903

7- Rachid Bourouiba, l'art religieux musulman, 2 eme édition SNED, Alger 1981

8- ديسمبر صالح قربة، العمارة الدينية في عصر المرابطين بالجزائر، في مجلة سرتا، العدد: 04 الجزائر ص 43 :1980

9- R.Bourouiba, opcit p : 80

10- G.Marçais, l'Architecture musulmane d'occident, France 1954, p : 250

11- الحاج محمد بن رمضان شاوش باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية 1995 ص 213-214

12- عبد الستار محمد فيض، المساجد و الآثار الإسلامية في الجزائر في مجلة الوعي الإسلامي العدد 122، 1975 الكويت ص: 38

13- R .Bourouiba, opcit, p : 185

14- Terrasse (H) la mosquée d'alquarawiyin à Fès et l'art des almoravides, Paris 1957 P : 36

15- عقاب محمد الطيب ، لمحات عن العمارة و الفنون الإسلامية بالجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1990 ص:82.